الصحافة والإذاعة والسينما

تبنى المجتمع أو تهدمه

يبدو أن كثيرين من المشتغلين بالصحافة والإذاعة والسينما فى مصر لا يقدرون قيمة السلاح الذى وضعته الأقدار فى أيديهم ولا يعرفون مدى تأثيره ؛ أو يقدرونه و يعرفون مدى تأثيره ، ولكنهم يرمون إلى الربح المادى الرخيص أكثر مما يرمون إلى المحافظة على شرف الأداة التى يملكونها ؛ أو يدفعهم العبث والاستهتار إلى اللعب بالنار ، ولو كان وقودها المجتمع والخلق والضمير !

و بغير هذه التأويلات لا نستطيع فهم بعض ما ينشر فى كثير من الصحف ولا سيما الأسبوعية منها ، فكثير منها يتبارى الآن فى إثارة أخس الغرائز البشرية و يعتمد على أحط الأحاسيس الحيوانية لترويج الصحيفة وضمان الربح المادى على حساب المجتمع وفضائله الإنسانية ، أو لبلوغ أغراض شخصية صغيرة لا يصح أن تضحى فى سبيلها أمة أو يحترق فى لهيبها شعب .

ووسائل هذه الطائفة متعددة ، فمنها عرض أسرار البيوت وأخبار الزواج والطلاق وحوادث العشق الرخيص ، إن حقيقة و إن خيالا ، لتغذية غريزة حب الاستطلاع فى أحط صورها .

ومنها نشر مايسمونه أخبار الطبقة الراقية وصورها وحفلاتها ، ولو كانت هذه أسرا راقية حقيقة ما قبلت أن تنشر صور نسائها وكريماتها فى هذه الأوضاع المخجلة التى تنفر منها بعض أنانى الحيوان ، وتتوارى بالغابات والكهوف حين تلجئها الغريزة إلى هذه الأوضاع ولا تسمح لعدسة المصور أن تلتقطها لاختبائها إذ ذاك عن الأنظار ! . وليست المسألة فى هذا مسألة تقاليد دينية أومسألة شرف وعرض ، إلى آخر هذه الأسماء التى تدل فى عرف هؤلاء الناس على التأخر والجمود ، بل هى مسألة شعور بشرى بل حيوانى ! ، ومسألة غريزة سليمة تأبى هذا التبذل فى الأوضاع المخجلة .

ومنها نشر صور الشواطئ والحمامات ، بحجة أن هذا يقع فعلا ، فلا ضرر من نشره ، أو بحجة أنهم ينشرونه ليوجهوا أنظار المسئولين لمنعه فى " البلاجات " . وهى حجة غريبة وفيها مغالطة واضحة ، فهذه المناظر التى يراها المئات من رواد الشواطئ لا يصح نشرها بين الملايين الذين يرونها فى الصحف ، وما نشرها إلا نشر لمنكر باعترافهم ، والجريمة لا تبرر

الجريمة . على أن هناك عاملا نفسيا مهما فى هذا الموضوع ، وهو أن الأجسام العارية على " البلاج " لاتثير ما تثيره صورة واحدة فى صحيفة . والسبب فى ذلك واضح لكل من ذهبوا إلى الشواطئ ، فهذا اللحم العارى هناك رخيص لايكاد يجد من ينظر إليه وهو يميت الرغبة فيه فى نفوس الكثيرين لأنه مكشوف بارز للنظر ولا مطمح فيه للخيال ، ولأن الجو كله هناك يجعل هذه المناظر عادية لا تثير فى النفس انتباها كالعرى فى الغابات والحراج عند قبائل الزنوج على وجه التقريب . بينما الصورة العارية فى الصحيفة تلهب الخيال لاستحضار الأصل الحقيقى فى الذهن وتثير التشهى بإثارتها للخيال ، ولبعدها عن الجو العارى المتكشف على " البلاج " .

ومنها ترجمة ما ينشر فى بعض الصحف الفرنسية والأمريكية — خاصة — مما يقصد به إثارة تطلع الجماهير بوسائل شاذة ، ومما يجعل هذه الصحف مواخير متنقلة ، كاجابة بعض الراقصات و بعض ممثلات السينما عن سؤال يتعلق " بالقبلة الأولى متى تلقتها الممثلة أو الراقصة وكيف كان شعورها بها " أو عن المغازلات التى ان تنساها . أو عن " السقطة الأولى وظروفها " .

ومثل هذه الأسئلة والإجابات الداعرة التى يجاب بها عليها تنشر فى الصحف وتدخل البيوت وتقرؤها الفتيات والفتيان فى سن المراهقة وسن الشباب . وفيها ما يفسد الفطرة البشرية فضلا على الشرف الإنسانى والحاسة الاجتماعية . دون أن تستعيض عنه الإنسانية فنا أو ثقافة أو علما . ومثل هذه المفاسد تباح لها حرية النشر التى قد يضن بها على المبادئ والأفكار الإنسانية وعلى الصراعات السياسية الحزبية .

فنحن قد نستطيع أن نقبل انتهاك حرمات المجتمع والتحلل من القيود كلها فى سبيل فن طليق أو مبدإ من المبادئ الاجتماعية أو السياسية ، أو فى سبيل نظرية علمية تهدم قواعد العرف والاجتماع ، لأن هناك تعويضا عن الهدم بالبناء ، ولأن الحرية فى هذه الصورة أغلى من جميع المقدسات .

ولكن أى عوض للانسانية أو للمجتمع عما يهدمه هذا البغاء السافر فى صورة صحافة ؟ وأية حرية هذه التى تبيح حرمات الدين والمجتمع والآدمية لعبث داعر ، أو تجارة لا تزيد شرفا على تجارة المواخير ؟

وليس نشرها فى بعض المحلات الفرنسية والأمريكية بشفيع لها أن يعاد نشرها فى مصر ، ولا نريد أن نحتج باختلاف الوسط والبيئة والتقاليد ، أو بشىء من هذا الذى يعده السادة المنحللون من القيود تأخرا وجمودا ، وبكنا نقول : إن عاقبة هذه الإباحية كانت نكبة فرنسا العزيزة على أصحاب هذه الأقلام البائسة ، وأن المجتمع الأمريكى قد يهضم هذه النشرات لأنه

مجتمع فتى قوى التركيب ، وفيـه من قوى البناء مثل مافيه من قوى الهدم ، فهناك تعادل بين هذه القوى وتلك . أما المجتمع المصرى فهو مجتمع مفكك مضطرب تؤثر فيـه أضعف المؤثرات فى هذا الطور فى أطواره ، ويحتاج إلى منتهى الحرص والحذر فى إنهاضه ورعايته .

على أن عقلاء الأوربيين والأمريكيين ينبهون دائمـا إلى أثر هذه الإباحيات المـاجنة مع عرفانهم بصلابة المجتمع هناك ، إذ أن طول تعرضـه للكشف والحرية أكسبه مناعة لا تتوفر فى المجتمع المصرى الذى يخرج حديثا من الظل إلى الشمس ، ومن البيئة المحافظة إلى الطلاقة الهوجاء ، مثله فى ذلك كمثل الناشئ فى الصون والرعاية حين يلقى إلى الصراع والاصطدام !

على أنى لا أذكر أن إحدى صحفنا التى تنقل هذه الأشياء نقلتها مرة عن صحيفة انجليزية . فهى دائما تنقل عن الصحف الفرنسية القديمة أو عن الصحف الأمريكية . فلماذا لم تهبط الصحف الانجليزية إلى هذا المستوى ؟ ولمـاذا لم يبح المجتمع الانجليزى هذه الدعارة السافرة ؟ ثم ألا يستطيع بلد شرقى مسلم أن يحافظ كما يحافظ الانجليز حتى الآن ؟

وما يقال عن الصحافة يقال عن الإذاعة ، ومع كل ما حاولته جهات الإشراف على الإذاعة من التطهير والتنظيف ، فما يزال بعض الأغانى يحمل معانى داعرة أو مؤذية للفطرة السليمة ، وبعضها يسلم من هذا العيب فى ألفاظه ، ولكنه لا يسلم منه فى تلحينه وفى أدائه .

وكثيرا ما يحمل الأثير إلى سمع الحرائر فى البيوت صوتا راعشا ونغمة فاجرة تردد مثل هذه الأغنية :

يا كابتن أحب نجومك ٭ يا كابتن أموت فى هـدومك
كلامك حامى يا كابتن ٭ يهز الألب طوالى
وشكلك ميرى يا كابتن ٭ وكتفك كله بيلالى

وأقول صوتا راعشا ونغمة فاجرة لأن ألفاظ الأغنية قد تكون مستورة . أما أداؤها فهو الجريمة التى يجب أن ننزه عنها سمع الفتيات والفتيان ، بل سمع كل آدمى يحس أنه إنسان لا حيوان !

وليس بين أداء هـذه الأغنية وأداء بعض الأغنيات الأخرى مثل " ميهونشى " و " مأقدرش أنساك " و" يا ماما " " وبلاش تبوسنى فى عينى " وسواها كبير فرق ، فجميعها مسخ للفطرة البشرية ، وانحلال فى الطبيعة الإنسانيـة ، وتميع يغثى به بعض النفوس ، ويخل به بعض النفوس . وجميعه لا يصح أن تسمعه أمة ناهضة تتطلع إلى الحياة .

وما تسمعه فى الإذاعة أعلى وأشرف — مع هذا — مما يذاع فى الصالات . ولكن الضرر هناك مقصور على روادها وهم أولا طائفة قليلة بالنسبة لمستمعى الراديو ، وثانيا جماعة لا يزيد مستوى نفوسها على مستوى ما تسمع وتشاهد، وقد ذهبت إلى هناك ترضية للشعور البهيمى و إجابة للضرورة الغريزية ، فلا ضير عليها أن تجد هناك هـذا الغذاء الذى ذهبت تتلمسه فتلقاه . و إن كان هـــذا لا يعفى المجتمع من حفظ هذه السموم حتى على المتسممين ! ! !

أما الأفلام ففى بعضها متعة للنفس والفكر تغتفر لها ما يشوبها من مناظر و إشارات . ولكن بعضها لا يزيد على الإغراء الرخيص والإثارة الوضيعة . وذلك مع ندرة الأفلام الثقافية التى تفيد التلاميذ والطلاب وطالبى المعرفة بوجه عام ، وهى أفلام تعنى بها بعض الهيئات و بعض الحكومات فى أوربا وأمريكا وتعوض بها ما تخسره فى الأفلام الأخرى ، ولكننا فى مصر نصنع فى هذه المسألة ما نصنعه فى كل شئ نقتبسه عن الغرب : نأخذ الفاسد وندع الصالح بدقة غريبة لا تخطئ فى مرة من المرات !

* * *

والآن ونحن نفرض الرقابة على كل ما ينشر أو يعرض أو يذاع ، خيفة أن يكون فيه لفتة سياسية أو دبلوماسية لا ترضى جهة من الجهات ؛ ونحن نستبيح فى سبيل هذا الغرض كل حرية من الحريات العامة ؛ لم نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه المفاسد المتنقلة ، ولم لا نستبيح الحرية لننقذ المجتمع مما يهدده من الفوضى والانحلال .

لقد قلت : إن الحدود والتقاليد قـد تضحى ولكن على مذبح أسمى منها ، هو مذبح المبادئ والأفكار . فهل يجوز أن تضحى كذلك على مذبح التجارة أو مذبح الاستهتار ؟ إن الحكومة فى هذه الأيام تلغى البغاء، فهل ترتفع هذه النشرات وهذه الأغنيات وهذه الروايات عن هذا البغاء ؟

وأنا أكره أن تسخر الفنون للأغراض الاجتماعية ، وأن تفرض طريقة الوعظ والإرشاد على الفنون والآداب، ولكن ينبغى أن يكون الفن فنا ليستمتع بحق الطلاقة من القيود . أفهذه الصحافة وهذه الإذاعة تستحق أن تكون فنا وهى تعرض الأجساد العارية بلاغاية من الفن أو الدراسة ، وتذيع النغمات المسترخية المتأنثة أو الفاجرة الداعرة بلا غاية من الفن أو الثقافة ؟

يجب أن تكون هناك رقابة اجتماعية لا تقل تدقيقا عن الرقابة السياسية ، فمن العبث أن ننتظر من هؤلاء التجار ، على اختلاف سلع التجارة فى أيديهم ، يقظة فى الضمير أو نبضة فى الشعور . إنهم يعرضون هـذه البضاعة فيربحون ، و يزيدهم الربح إصرارا على انتقاء البضاعة القذرة المطلوبة للسوق فى عصور الانحلال والاضطراب !